هذه الرموز، هي تعبيرات عن فجاجة ذهنية وخيارات غير مكتملة، وكذلك تمويه تصبح فيه الكلمة وطناً يرحل إليه المثقفون والشعراء... ومن هنا فرضت حالة التحولات مفهوماً جديداً لنظرة الإنسان للحياة وبالتالي للموت. ليس باعتباره حالة عابرة أو مرحلة زمنية وإنما كمحرك للسلوك والقيم والنظم الاجتماعية والفكر.

ولعل للبيئة التي تتميز بالصفاء والإتساع والسكون، والحميمة في بساطة مكوناتها وفقرها ومحدوديتها، أثراً كبيراً على دعوة الإنسان للتأمل والتفكير وهي على بساطة موضوعه واسلوبها تشكل فلسفة للبحث في الوجود والكون والخلق والموت...

هذه البساطة تتبادل فيها تضاريس المكان مع ملامح السكان وتفكيرهم فيعبروا عنها سليقة بالشعر، خلاصة للخبرة الإنسانية وهمومها، ومن هنا فقد كان الشعر يشكل نواة لفلسفة اجتماعية وتمتلك خصائصها التجريدية والشمولية باعتبار أنّ الفلسفة بالأساس أداة معرفية شاملة تقوم على البناء اللغوي التجريدي والحراك الاجتماعي الذي يقوم على المنهج التأملي في تحليل بنى المجتمع وإعادة تركيبها في صور مبتكرة.

وإذا كانت الدهشة هي النافذة الأولى للسؤال الفلسفي عند افلاطون فإن القلق يشكل التساؤل الأول عند طرفة بن العبد للتأكد من مدى صحة الحقائق السائدة، ولكن على أساس وأية مرجعية استند شاعرنا إذا كانت المعرفة تتحقق بالعقل والحس والتجربة، لا شك بأنه في ذلك قد انتقل من مجال الحس المميز لأداة القبيلة المعرفية وتعبيراتها الى العقل كأداة معرفية مجردة، وهو تحول ونقلة في بناء الصورة الشعرية والتفكير الإجتماعي نمتا معاً في سياق مرحلة تاريخية تطورت من مرحلة التفكير الحسي الى التفكير المجرد على حد رأي علماء الإجتماع في تفسير ابستمولوجيا المعرفة وقوانينها.

وقد تأثرت فلسفة الشاعر كما قلنا بالبيئة الذاتية والموضوعية باعتبار الذاتية تشكل مخزونه النفسي أما المادية فهي تشكل مدى استخدام الشاعر للمعارف والرموز والأحداث لتكثيف أدواته ولغته وإصدارها من خلال خبرته الذاتية والنفسية للتعبير عن فلسفته:

ولست بحلال التّلاع مخافة
ولكن متى ما يسترفد القوم أرفد
فإن تبغني في حلقة القوم تلقني
وإن تقتنصني في الحوانيت تصطد
رأيت بني الغبراء لا ينكرونني
ولا أهل هذاك الطراف الممدد
إذا القوم قالوا من الفتى خلت أنني
عنيت فلم أكسل ولم أتبلد

في هذه البيئة اكتشف الشاعر موهبته مبكراً وبمعنى آخر اكتشف نفسه وكان يعلم ما يمكن أن تؤهله له مثل هذه الموهبة التي استغلها لنقد التشكيل الاجتماعي وأعرافه وثقافته وجعل منها سلاحاً حاداً وماضياً للنقد الاجتماعي، والتبشير بآرائه، هذه الذاتية بمحصلتها لم تكن سوى تشوف ثاقب لصيرورة الواقع الاجتماعي في أبعاده الإنسانية والكونية.

لكن أمام سلطة القبيلة (الثقافية) وبنائها الإجتماعي (الذي يقمع الفرد مقابل الجماعة) يصبح الخطاب (تحويلاً) بمعنى نقل موضوع الإهتمام إلى موضوعات أخرى.

وكان موضوع الموت بالنسبة للشاعر يعني مركزة الفكرة ولكن التعبير عنها لم يكن بالوضوح والجرأة التي يتم اكتشافها فيها ومن هنا جاء ترحيلها إلى الكلمات (الشعر) كأداة خطاب وأسلوب حياة.

وربما كان لوفاة والده وهو لم يَزل طفلاً دور حاسم ومحوري في خطابه، وإن لم يشر لذلك مباشرة في قصائده، وهذه مسألة طبيعية، فغالباً ما تكون الأحداث الهامة والجسيمة في حياة العباقرة شديدة الحساسية. للدرجة التي لا يتوقفون عندها ولا يشيرون إليها مباشرة، وإنما يحاولون إخفاءها وتحويلها في تعبيرات أخرى.

وفي دراسة (فرويد) للعباقرة مثل (دافنشي) أشار لمثل هذه الحالة التي وصفها «بالتسامي» حيث يتم تحويل حالة الحرمان إلى نتاج إبداعي فني أو أدبي.

وفي حالة شاعرنا فقد تأسس على الحدث بناء فكر فلسفي دون الإشارة للمحادثة ولكنها عبرت عن نفسها بنظرة أكثر شمولاً واتساعاً وعمقاً.

فالموت كان يعني بالنسبة له الحقيقة المطلقة والثابتة لمواجهة الحياة بكل تفاصيلها.

فإن كنت لا تستطيع دفع منيتي
فدعني أبادرها بما ملكت يد
أرى الموت أعداد النفوس ولا أرى
بعيداً غداً ما أقرب اليوم من غد
لعمرك ما الأيام إلا معارة
فما اسطعت من معروفها فتزوّد
أرى الموت يعتام الكرام ويصطفي
عقلية مال الفاحش المتشدد

(وهو اكتشاف مهم في زمن الشاعر)(١) وإذا كان الظلمُ والجمود والقهر حالات محسوسة فإن الحقيقة الأزلية والثابتة لا تحتاج لشواهد، ولكنها ظاهرة أكثر عدالة وأكثر من مظاهر البناء الإجتماعي التي تؤول بنظر الشاعر للسقوط والفناء.

وكأنه يقول أن بمقدار ما كان للحياة من ثمن فإن للموت أيضاً ثمناً، ومن هنا انعكس فكر الشاعر في خبرة فلسفية-أشبه ما تكون بالقلق المعرفي- تستبق متعة الحياة قبل أن تفرض الحقيقة واقعها ولعلها حالة الاستشعار لشاب تفتقت عبقريته، فعصر خلاصة تجربته ومتخيله كشارات وعلامات تعمق القلق الإنساني بالحقائق التي تبدو للآخرين بأنها راسخة. فجاءت تساؤلاته لتعمق دهشتنا ليس لحياته الحافلة بالقياس الزمني لسني عمره القصيرة وإنما لعبقريته في احاطته ظاهرة الموت بفكر فلسفي مبتكر، يعبر عن نفسه في معدلات اجتماعية ومترادفات لغويّة تشكل مؤشرات على ظاهرة واحدة مطلقة وثابتة، وتشكل محركاً للظواهر والتفاعلات الإنسانية الأخرى بمعنى أن الموت ظاهرة كونية تفوق الظواهر الأخرى وتحريكها وإذا كان هذا الرأي الآن لا يشكل محركاً حتى بالنسبة للأطفال بعد مرور ما يقارب من ألف وخمسمائة سنة على حسم هذه المسألة بظهور الدعوة الإسلامية والتي بيّنت وجود الحياتين : الدنيا والآخرة. ولكنها كانت انذاك معضلة فكرية حاول الشاعر أن يجد لها اجابات. ترضي قلقه الذاتي، وتعمل على توازن المجتمع من خلال تغيير مبتناه ومبتغاه.

فالجو الذي كان يسود الحيرة آنذاك ابرز النزعة التأملية في المصير والحياة بعد الموت والخلق والبحث عن حلول للحالة الآيلة للإنهيار.

«وفي بروز النزعة التأملية في المصير المنتظر، والتعبير عن هذا التمزق الذي يصيبه في محاولته لتخطي القبيلة ومؤسساتها يعتري الإنسان شعوراً وكأن العالم قد أذن بالانتهاء»(٢).

معادلة الجمود - الحرية:

كانت فكرة الموت تشكل المعادل الاجتماعي للقهر والجمود والظلم والمعادل الكوني للقلق المعرفي الذي وجد له الشاعر اجابات تقاطعت مع ثقافة القبيلة جعلت منه خارج إطارها وأسوارها.

ولكنه كذلك وجد حريته، الا انه في سياق ذلك اللاتوازن والقلق ظلت صورة استهلاك الوجود فكرة وهاجساً دائماً لسلوكه كرد على احساسه بالموت «فالصورة المثلى في نفسه هي استهلاك الوجود حتى لا يفقد معناه»(٣).

فهو يقول :

وما زال تشرابي الخمور ولذّتي
وبيعي وانفاقي طريفي ومتلدي

---

١) سركيس غطيلي.
٢) نفس المرجع.
٣) توفي الشاعر عن عمر يبلغ السادسة والعشرين كما تقول احدى في رثائه:
عددنا له ستاً وعشرين حجة فلما توفاها استوى سيداً جحفلاً
فجعنا به لما رجونا ايابه على ظهر حال لا وليداً ولا الحفا

إلى أن تحامتني العشيرة كلها

وافردت افراد البعير المعبد

فهو يعبر هنا عن فقدان اللغة المشتركة مع القبيلة التي أساءت فهمه وأخرجته من جسمها وعزلته وعن وذهابه الى الملذات كرد فعل على سلوك القبيلة وفكرها. وبالتالي موقف من السائد الإجتماعي والثقافي.

إلاّ أنه لجأ لإستعادة لغة التواصل من خلال اللغة نفسها كأداة قادرة على استيعاب مفرداته وآرائه بمرونة عالية، وكأسلوب تميز به الشعر كوسيلة خطاب تبشيرية مثلها مثل المسرح والخطابة لدى الشعوب الأخرى.

واللغة بمقدار ما طوعت الفكرة فإنها كذلك استطاعت ان تعيد تشكيل البيئة الموضوعية في دلالات تعكس سمات الشاعر وافكاره ومتخيله وذاتيته. وتحقيق فلسفته الذاتية، اختزلت الكون في قيمة كبرى هي (الموت) ومعادلها المقابل هو الحرية، وطوعت البيئة الموضوعية إلى منظر حسي، شكل من خلال خبرة الشاعر الذاتية.

«فالمشكلة التي تطرح بالنسبة اليه هي تثبيت حقيقة انسانية بديلة في نظام الحياة والأشياء في مجتمع فرض عليه الجمود والتكرار... وهكذا كانت تتناوب الأدوار او تجمعها شخصيتا الشاعر الفارس عن طريق الحوار والقتال(٤)» لتجاوز الجمود الى فضاءات الحرية.

ولا نجترح محدثاً اذا قلنا بأنّ (ذاتية) الشاعر كانت تشكل ارهاصات أولية (بدائية) للتعبير عن الحالة الفكرية الباحثة عن معنى الوجود وما بعده التي ارتبطت فكرتها بكونية الموت كقيمة خالدة مقابل المظاهر الزائفة.

«وطرفة كأي شاعر جاهلي عاش فترة قلق فكري وحيرة أمام الموت الذي اقضّ مضجعه ولم يجد حلاً(٥)» ولكنه استطاع أن يذهب بفكر المجتمع القبلي من المرحلة الحسية الى المرحلة المعنوية المجردة، فيقول :

أرى قبر نحام بخيل بماله

كقبر غوي في البطالة مفسد

ترى جثوتين من تراب عليهما

صفائح صمّ من صفيح منضد

وكان البديل في إعادة انتاج القيم الاجتماعية السائدة مثل الشجاعة، الكرم، وعمل الخير التي نُقلت على لسان الشاعر (كرسائل) تبشيرية واصلاحية حيث يقول في قبيلته ومجتمعه وسواء كان الواقعي أو المتخيل، فإنه يريده كذلك :

وهم أيسار لقمان إذا

اغلت الشتوة ابداء الجزر

لا يلحون على غارمهم

وعلى الأيسار تسير العسر

وكذلك:

اني من القوم الذين إذا

أزم الشتاء ودوخلت حجره

رفعوا المنيخ وكان رزمهم

في المنقيات يقيمه يسره

وترى الجفان لدى مجالسنا

متحيرات بينهم سؤره

(٤) مركيس غليون.
(٥) بهجت الحديث.

هذه المنظومة القيمة تشكل تجريداً فكرياً لقيمة الموت في إحلال نظيرها الذي يجسده عمل الخير فيه كدعوة للخلود، تتضمن اعترافاً بزوال الحياة وفنائها، الا انه في غياب فكرة (الآخرة) والحساب والعقاب التي حملها الإسلام لم يستطع الشاعر ان يتجاوز فجاجة السائد فهو يجعل من الموت القيمة الكبرى للحياة والمعادل لها بمعنى أن الموت ليس حداً فاصلاً لحياة اخرى وإنما هو فرصة للخلود تتاح لمرة واحدة وبعدها الفناء، وكما يقول :

فكيف يرجى المرء دهراً مخلدا
وأعماله عما قليل تحاسبه
ألم تر لقمان بن عاد تتابعت
عليه النسور ثم غابت كواكبه

وهو بهذا يؤسس لقيمة الموت كقيمة اجتماعية عليا لتمييز الإنسان من خلال سلوكه في حياته وما يقدمه من خير. وما يتجلى في سلوكه من قيم خالدة وهنا محاولة لاختزال الحياة في رموز اجتماعية تتصف بالخلود. وما دامت كذلك فإن صاحبها سيكون له الذكر، ومسألة الخلود هي مسألة قديمة وقد عبر عنها الشاعر العربي بعامة من خلال اغراض الحب (تكافل الأنثى والرجل) والخمر (استهلال الوجود بالغياب عنه) والكرم (استمرار الذكر بالبذل والتضحية)، حيث يقول :

كريم يروي نفسه في حياته
ستعلم إن متنا غداً اينا الصدى
أرى قبر نحام بخيل بماله
كقبر غوي في البطالة مفسد

القلق والحكمة:

يتلازم فيها وقد شكلت الأغراض السابقة (الخمر، والمرأة، والكرم) ثلاثية القلق المعرفي باستمرار مع ظاهرة التأمل وهي ظاهرة غالباً ما تبحث في المسائل الكبرى للحياة، وعند شاعرنا هناك مسألتان جديرتان بالبحث وتلخصان حياة الشاعر وفلسفته :

القلق:

الموت هو الصورة الملازمة لبيئة الشاعر وعلاقاته وما حوله وتشكل صورة قلقة للحياة في بيئته قاسية مثل الصحراء العربية، وتلازم ظاهرة الغزو، ومعاشه يتيماً شريداً توحي له بالموت، إضافة الى نفسه الطموحة وثقته بنفسه كانت تدفع به غالباً للخيارات الصعبة، وكذلك فإن انساناً يحمل هذه المعاني من الحكمة التي تستند لفكر تأملي لا بد وأن يفكر في ظواهر الكون.

وبالطبع فإن الموت هو إحدى ظواهرها الفاجعة والمناقضة لرغبات الإنسان وآماله هذه الصورة تكشف عن قوانين الحياة التي يصورها الشاعر في تساؤلات عميقة تلج أبواب الحكمة، فيقول :

فكيف يرجى المرء دهراً مخلداً
وأعماله عما قليل تحاسبه

والفيصل لتفريق وتمايز الناس هو ارادته لإمتلاك خياره بحرية:

ألا ايهذا اللائمي أحضر الوغى
وأن اشهد اللذات هل أنت مخلدي
فإن كنت لا تستطيع دفع منيتي
فدعني أبادرها بما ملكت يدي

ولكن التحدي هو القيمة التي تمنح الإنسان حريته في اختياره ولعلّ اختياره الموت هو أسمى أنواع الحرية، فالموت هو الذي يتخير كرام المال والأفعال والرجال...

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفي

عقيلة مال الفاحش المتشدد

فالموت إذا رمز تمييزي للناس وسلوكهم ومعاشهم وفكرهم وتمييزي للحرية والجمود والشجاعة...، والحياة اذا كانت بالمعنى الطاغي الذي رآه وعاش فيه يتيماً شريداً ليس مأسوفاً عليها، وهي فرصة لاستباق النعم والذكر الباقي فهو بالنسبة له كان مبرر الحياة وليس هدفها

ولا تجعليني كامرىء ليس همه

كهمي ولا يغني غنائي ومشهدي

الحكمة:

يقول ابن سلام، انه اشعر الناس واحده وابن قتيبة يقول انه أشعر الناس طويلة ويتفق ابن رشيق مع ابن سلام في حين يضيف وليد العامري قائلاً، اشعر العرب هم الملك الضليل ويقصد امرؤ القيس والغلام القتيل ويقصد طرفة والشيخ ابو عقيل ويقصد لبيد.

وقد اثرت ثقافته كما أسلفنا من خلال اهتمامه بالمرويّات والأوابد على تكوين نزعة تأملية، وذكاؤه ونفاذ بصيرته وعبقرية في تبسيط الصورة الشعرية المتمثلة بالحكمة التي غالباً ما ترتبط بالرؤيا الفلسفية والحالة النفسية، حيث يقول :

خليلي لا والله ما القلب سالم

وان ظهرت مني شمائل صاح

والا فما بالي ولم اشهد الوغى

أبيت كأني مثقل بجراح

فهو مثقل بالجراح، وإن ظهر عليه تعبيرات السرور فإنها مظاهر خارجية، تخفي في أعماق النفس شعوراً بالقلق.

«ومن هنا نرى ان بيئته الذاتية (النفسية) والموضوعية (الخارجية) اسستا لخطابه الفلسفي، حتى اصبح مميزاً لشعره، وفي تناوله لموضوع الحكمة كانت مفردة الموت تشكل بحثاً كونياً لمعرفة الوجود وضروراته وصيرورته في صورة ابداعية ومبتكرة لتشكيل تخيل يحقق الحرية التي اكتشفها في مفردة الموت التي يتساوى فيها جميع البشر»ولهذا لم يكن طرفة يحتج من وجهة نظر في الحياة، وانما كان يتجاوز قفزاً الى الجوهر المحرك لنهاية الأحداث»:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً

ويأتيك بالأخبار من لم تزود

إذا أنت لم تنفع بودك قربة

ولم تنك بالبؤس عدوك فابعد

عن المرء لا تسأل وسل قرينه

فكل قرين بالمقارن يقتدي

***

وذو الحق لا تنقص حقه

فإن القطيعة في نقصه

ولا تذكر الدهر في مجلس

حديثاً إذا أنت لم تحصه

(٦) القرشي، جمهرة اشعار العرب.

ونص الحديث إلى أهله

فإن الوثيقة في نصه

ولا تحرصن، قرب امرىء

حريص مضاع على حرصه

الشاعر (الأسطورة)

تشكل شخصية الفرد اختزالاً لواقعه وطموحاته وآماله وكذلك أهميته وتأثيره على الصعيد الفكري والثقافي، وكذلك تشير إلى المستوى الثقافي للمجتمع وقضاياه الأساسية والملحة، والواضح ان الأدبيات التي درست شخصية طرفة بن العبد وبيئته وحياته قد رسمت صورة مبهرة وغير عادية بالغت في إحاطته ببعض الوقائع والأحداث والأجواء الأسطورية.

ومنها قصة المتلمس وقصة لقائه مع الشاعر عمرو بن كلثوم في حضرة الملك عمرو بن هند. وما جرى بينهما من مفاخرة شعرية.

وترد القصة الأولى في معرض نقده لخاله المتلمس حين قال :

وقد اتناسى الهم عند احتضاره

بناج عليه الصيعرية مكدم

فصاح الفتى (طرفة) استنوق الجمل

قالوا : فدعاه خاله وطلب منه اخراج لسانه فإذا هو أسود. فقال : وهو يشير إلى رأسه. «ويل لهذا من هذا»

إلا أن هذه الحادثة نفسها تتكرر في حضرة الملك عمر بن هند بن ماء السماء بحضور الشاعر عمر بن كلثوم، ويرد البيت على لسان بن كلثوم :

وإني لامضي الهم عند احتضاره

بناج عليه الصيعرية ميسم

فقال الشاب قولته :

ويقال أنّ ابن السماء كان يميل لطرفة، فقال له اهجه، فقال طرفة في ذلك :

اشجاك الربع ام قدمه أم رماد دارس حممه

حتى بلغ :

حيث انتم وجمعكم حطب للنار تضطرمه

فقال عمر بن كلثوم يتوعد :

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

بأي مشيئة عمر بن هند نكون لقينكم فينا قطينا

حتى بلغ :

إذا بلغ الفطام لنا رضيع تخر له الجبابر ساجدينا

المهم أن المبالغة في اضفاء هالة لتضخيم الحدث حولته لأسطورة خلاقية بشهادة الملك بن ماء السماء...

وكذلك أسطورة مقتل الشاعر(٧)، كل ذلك ليؤكد عظم الحدث وأهمية المرحلة التاريخية واهمية التحولات الفكرية واهمية موضوعاتها وعدم الوفاة المجانية لشاعر مجيد مثل طرفة.

ولكن حياة الشاعر وطبيعة النقل الشفاهي تشكل ارضاً خصبة لمثل هذه الأساطير وهي بالقطع ليست الأولى ولا الأخيرة فهنالك الأساطير التي حيكت حول السليك والشنفرى والحطيئة.

ونتيجة لسلوكه وآرائه هذه سخطت عليه قبيلته وطردته فصقلت الأسفار خبرته، وزاد التطواف في تجاربه فزادت ثقته بنفسه، واضيفت

لسرعة خاطره وذكائه الفطري معين لغوي عبّر من خلاله رسوماً تهكمية، تعبر عن مبالغة في الثقة لدرجة التيه والإعجاب بالنفس الذي يصل لدرجة الغرور:

اذا القوم قالوا من الفتى خلت انني عنيت فلم اكسل ولم اتبلدا

وفي اجواء التناقضات هذه مال الى اللهو ومعاقرة الخمر ومعاشرة النساء، فانفق ماله حتى ضاق العيش ولعل اللهو والخمر... هو تعبير عيشي عن فلسفة رفضية للوقع بالغياب عنه والإنقطاع عن نظمه الإجتماعية.

الا ان هذه الفلسفة الرفضية تجيء لمواجهة تناقضات المجتمع فيعبر عنها بصورة قلقة، هذا القلق الإنساني الذي يبحث عن الحرية والعدالة والإنطلاق والإنفكاك من قيود القبيلة واعرافها السائدة الى عالمه الخاص، عالم الشعر والمتعة الحسية لاستهلاك الوجود.

كريم يروي نفسه في حياته

ستعلم إن متنا غداً أينا الصدى

ومن هنا فإن اضفاء حالة الأسطورة على حياة الشاعر ومماته يُمثل اعترافاً - بغضّ النظر عن واقعيتها أو صدقها- لعظمة شخصية الشاعر الذي ولد في ظل تناقضات تقهر العبقرية، ولكنه لم يستسلم لها، «فكانت محاولة الشاعر ونهايته كرمز مأساوي تشير ان هذه المشاركة فيما صبا إليه، ولو بالإحساس والسلوك والكلمة يمثل رفضاً انسانياً يعبر عن خصائص الشباب كما يعبر عن الشعر بأسبق وأسرع مما يعبر عنه الفكر والحياة.

ويمكن القول إن الشاعر طرفة بن العبد قد سجل خلال (ديوان العرب) الشعر فلسفة جديرة بالدراسة لفهم طبيعة الحراك الفكري والثقافي السائد آنذاك وتعبيرها عن ظواهر الكون الهامة، وبخاصة موضوعة الموت.

المراجع :

- القرآن الكريم.
- القرشي - جمهرة أشعار العرب.
- ديوان طرفة. دار صادق. بيروت / لبنان.
- القصائد العشر المشهورات للزواوي. وزارة الثقافة والاعلام ١٩٧٩.
- احسان سركيس. مدخل إلى الشعر الجاهلي. دار الطليعة. بيروت ١٩٨٩.
- بهجت الحديثي. دراسات نقدية في الشعر العربي. دار الشروق العربية. افاق عربية / بغداد ١٩٩٢.

يوسف عبد العزيز شاعراً

أحمد الكواملة

البحث عن أفق جديد ، وعن مدارات لم نألفها ، التحليق بالكلمات إلى لغة تفارق العادي إلى مراقي الدهشة والسعة المطلقة ، والرحيل بالصورة الشعرية من برجها الأول إلى أبراج تسلمنا إلى أبراج ، في إيقاع شديد الغنى والتأثير ، تلك بعض أسرار شاعرنا "يوسف عبد العزيز" . إنها أحلامه التي يهجس بها عبر قصائده ، وهي أدواته البسيطة الغالية التي أتاحت له عبر فترة زمنية قصيرة أن يحفر لشاعريته مكانا مميزا على خريطة الشعر محليا وعربيا .

إنها اللغة ، القيد والملاذ ، إنها هاجسه الذي لا يفتر ، ولأنه لا يرضى بالعادي ، فأنه يبحث عن لغة بكر ، لغة مطهرة تجتمع في صدره ليكون الهتاف الخالد .....

** متناثر " لغتي هواجس أحرقتها النار
آتية " تداعت حولها الأزهار
كيف أجمع الأصوات في صدري وأهتف ..؟ !
(حيفا تطير إلى الشقيف /ص١٧)

المحور الأول - القصيدة

إذن هي القصيدة تاجه العظيم ومملكته التي يشعر بالفزع والغربة إذا ما افتقدها قليلاً ، إنها التوحد والتناغم والانسجام بين ذاته وذاته وسائر الأشياء ، إنها حالة من البعث والتطهير...

...** منذ ستة أشهر
لم تضيء غرفتي
لم أسرح دمي في البراري
ولم اكتب الشعر ... لم احترق
منذ ستة اشهر وأنا غارق في الهدوء
والمساء ... حجرٌ فوق صدري
وحنجرتي يابسة
كيف أدخل مملكة الشعر ثانية
أهتدي للينابيع في جسدي ...
(نشيد الحجر /ص١٩)

ولا نكاد نمر عن قصيدة من قصائد " يوسف عبد العزيز " إلا ونلمس إحساسه الجارف بالقلق والبحث الدائب عن القصيدة ، القصيدة القاعلة والباقية والمدهشة ، القصيدة التي تعيد بناء الحياة بصورة بأخرى أقل تعقيدا وأكثر اندفاعا وتوحدا ، وبعيدا عن اللغو وبكثافة متجلية ، يكشف لنا سر القصيدة التي يريد ...

... ** ما القصيدة ؟ !
آن نسكب الأرض في لحمنا
ونغني معا ...
*(حيفا تطير إلى الشقيف /ص ٥٧)

المحور الثاني - المرأة

إذا كانت القصيدة تشكل المحور الأول الذي يشغل شاعرنا ، فان المرأة تشكل محورا آخر في غاية التموضع والسطوع في أغلب قصائد

ومجموعات الشاعر ، وهي تقاطع وتتلاقى بتلقائية وانفتاح مع كثير من المحاور التي يهتم بها شاعرنا ، فالمرأة هي القصيدة ، والقصيدة هي المرأة ...

* *... القصيدة أجمل امرأة / تأبطت الذراع المرمر / اشتبك الكمان بظله/ هذى أصابع كفي أتحدث بوهج الحلم / اركض والقصيدة اجمل امرأة ...

(حيفا تطير إلى الشقيف / ص ٧٥)

والمرأة معادل للنشوة ، للخمر والنبيذ والمسرة ....

* *... يا امرأة من نبيذ وعسل / آه من امرأة صدرها طافح بالنبيذ ....

وتأتي المرأة في صورة الوطن ، أو يأتي الوطن على هيئة امرأة ....

* *... مطر "هابط في نواحي المدينة/ والعش يطلق أطياره /

قمر " ساكن " في يدي امرأة / قالت الموجة المستحمة

في صوتها / أين ألقاك ؟ / ظل " كأيامه واقفا في

العراء / لم يكن يعرف الحب / هذا الذي كان ينزف

أسئلة ويداعب صورتها في المساء ...

(حيفا تطير إلى الشقيف / ص ٣٢)

وفي حالات كثيرة تأتي المرأة على صورة تفاحة مع ما تحمله دلالة التفاح من بعد أثيري وديني(تفاحة آدم وحواء) وما فيها من معاني الغواية والدمار ...

* *... من تراها تكون ؟ / الفتاة التي غادرتك /

أم سماء مدججة بالنبيذ ؟!

(نشيد الحجر/ ص ٥٩)

لاحظ كلمة "مدججة " في المقطع الأخير مع مخالفتها في موقعها هذا لما تحمله هذه الكلمة من معنى مباشر ، إلا أن دلالتها النفسية العميقة الهادرة جعلتها تبدو في سياقها المناسب تماما .

والمرأة معادل للحياة وللموت ، للنصر والشهادة ، للمتعة وللألم ....

* *... تنكسر ؟!

بل أضيء

حين تشعلني امرأة أو تفجرني قنبلة ...

(حيفا تطير إلى الشقيف /ص٥٩)

وأخيرا تأتي المرأة المرأة ... المرأة المشتهاة ، المرأة التي جاءت على عين مبدعها وشاعرها ، المرأة الممتلئة بالخصب والشهوة والنبيذ ...

*... وأشهد أنك امرأتي / وأول من خلقت / قددت هذا الصدر من غيم نحاسي وسويت الجدائل واليدين / ونفخت من روحي / فضج البحر في الأضلاع وامتلأت أصابعك الطرية بالنبيذ / وكنت لي نهرا إذا عانقته / تحت العظام / وشق لحمي ضفتين.....

«دفاتر الغيم /ص٦٧ »

وأكاد أقول إنه لولا انشغال شاعرنا " يوسف عبد العزيز " عن المرأة بمحاور أخرى لكان أمير النساء وشاعرهن عن جدارة ، إنه يترك لأحاسيسه آن تعبر عن نفسها بكثير من الحسية والإثارة ، وبعض شعره يذكرني بشعر امرئ القيس وأترابه من الشعراء ...

المحور الثالث - الجنس

الجنس أحد محاور شاعرنا ، بل أكثرها حضورا وتأثيرا ...

* *... وأنا ادخل الضوء من بابه

الوثني

وأحاول أن أصل الغابة

الغائمة

عاريا ، عاريا

على ربوتين بدائيتين

رميت مفاتيح روحي

وأطلقت خيل دمي للفناء ...

«دفاتر الغيم /ص٢٤»

إنها البدائية الجنسية الجارفة تشهر سلاحها الفاتن في وجه شاعرنا ، فيمعن في اختراق غاباتها ومجاهلها بروح المحارب الأسر العنيف . وهو يريد من امرأته صورة منه ، يريدها أن تكون نهرا ينحت العظام ، عاصفة تحطم الأبواب والضلوع ، سيفا يحز الرقاب ...

* *... أيتها المرأة / عندما تأتين إلي في المرة القادمة/ لا تطرقي باب بيتي / بل اكسري ضلوعي واعبري كالمحاربين ...

«دفاتر الغيم /ص٩٨»

* *... وأخيرا جاءت فلورا / وقفت أمامنا ... /وكانت قامتها ممتدة كالسيف الطويل / وقلنا لها ... اذبحينا يا فلورا ...

«دفاتر الغيم /ص١١١»

المحور الرابع - النبيذ

إن اكثر محاور اهتمام شاعرنا تدور حول الوطن ، المرأة ، الجنس ، النبيذ .
جزء مكمل للصورة بمعنى دلالي متعدد الإيحاءات ، فهو مرادف للدم والشهادة والبطولة...

* *... فالدم النافر من أجساده ينزف مني / والدم الراكض في السهل الجنوبي نبيذ "سائل" من قلب (بيت اعنان) (٤)

ويأتي النبيذ دلالة فرح وأمل بمستقبل أكثر إشراقا ...

* *... كأن البحر في بيروت مقهى / وجراراً من نبيذ / والمغنون يعدون المواويل لجمهورية الماء / ترى هل كانت الثورة ذكرى ...

«نشيد الحجر / ص١٦»

المحور الخامس - الحليب

ولعل كلمة الحليب ومرادفاتها وما تحمله من دلالات الخصب وما يثيره فعل الاحتلاب من مشاعر ، لعلها من أكثر الكلمات انتشاراً في مجموعته الأخيرة " **دفاتر الغيم** " وهي دلالات تأتي في أكثر الأحيان تعزيزاً لدراما إيقاع الجوع الجنسي الذي تموج به أعماق قصائده ...

إنه الذئب الذي لا يستريح

دائما يقتفي أثر امرأة

في الغيوم

يشم الحليب الذي يتساقط من فتحت في القميص

فيعوي ...

«دفاتر الغيم /ص٢٢»

أنظر إحساس البدائية في فعل (يعوي)
ويأخذ الحليب دلالة الجوع الجنسي (يقتفي) ودلالة طعم (قالت أنا زغب القيرة وحليب الشفاه) ، ودلالة رائحة (يشم الحليب الذي يتساقط) ودلالة لون (وجدت سماء حليبية).